النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

العلوم والصنائع بين نصارى العرب (تابع)

(الملاحة) كما اشتهر نصارى العرب بالتجارة البرّيّة كذلك اصابوا في التجارة البحريّة سهماً فائزاً. وقد بيّنا سابقاً انتشار النصرانيّة في سواحل جزيرة العرب في اليمن وعمان والبحرين فوجدوا في مجاورة البحار وسائل جديدة لتنمية ثروتهم وزيادة ارباحهم. فكان الحميريون واهل البحرين يحسنون اصطناع السفن وعمارتها فيقطعون بها خليج العرب الى الحبشة وبحر عمان الى الهند وخليج فارس الى جهات العجم. وقد اشاروا الى ذلك في شعرهم قال عمرو بن كلثوم التغلبيّ في معلّقته يفتخر بكثرة سفن قبيلته تغلب النصرانيّة:

ملأنا البرّ حتّى ضاق عنّا ... وظهر البحر نملأه سفينا

وقد احسن طرفة في وصفه لسفن قومه في البحرين فذكر بعض سفنهم العظيمة وهي الخلايا والعَدَوليّة من سفن البحرين وذكر احد رؤساء البحر المدعو ابن يامن ومَخر سفينته غمر المياه فقال:

كأنّ حدوجَ المالكيّة غُدوةً ... خلايا سفينٍ بالنواصف من دَدِ
عَدَوليّة او من سفين ابن يامنٍ ... يجورُ بها الملّاحُ طوراً ويهتدي
يَشُقُّ حَبابَ الماء حيزومُها بها ... كما قَسَمَ التُّرْبَ المفائلُ باليَدِ

وذكر الأعشى النوتيّ السائر بسفنه على الفرات عند طغيانه

مثل الفُراتيّ اذا ما طما ... يقذفُ بالبوصيّ والماهرِ

واشار امرؤ القيس الى طلي السفن بالقير:

فشبّهتُهم في الآلِ حين رَمَتهمُ ... صوائبَ دَوم او سفيناً مُقيَّرا

وقال الشمّاخ يذكر سفن البحرين وغواربها الكبيرة :

رماحُ رُدَيْنٍ ويحمارِيَّةٌ غَوارِبُها تُقاذِفُ بالسَّفينِ

وكانوا يُدعون النوتيَّ ملّاحاً وصراريًّا جمعهُ صراريّ ايضاً وصُرَّاء. قال ربيعة ابن مقروم :

واعرضَ واسطٌ فعدَلْنَ عنهُ كما عَدَلَ الصراريُّ السفينا

وقال المزرّق العبريّ :

الا ابنَ المُطَّلي خلَّتَنا وحَبَسْتَنا صراريَّ تُعطي الماكِسينا مُكُوسا

على انَّ فنَّ الملاحة الذي كان يعرفهُ ويزاولهُ عرب الحضر في سواحل الجزيرة كان في الغالب مجهولًا لدى عرب الحجاز ونجد. بل كانوا يعدُّون ركوب البحر كالطامَّة العظمى فبعد انتشار الاسلام وثبوت قدمهِ اذ رأووا في سواحل الشام ومصر سفن الروم. ارادوا ان يعبروا البحر لينزوا الجزائر كقبرس او سواحل اليونان وآسية الصغرى فالتجأوا الى من كان في حوزتهم من الروم في الشام والاقباط في مصر ومن نصارى العرب في جهات البحرين فتعلَّموا منهم صناعة السفن كما اخذوا صناعة التجارة لأنَّ انشاء السُّفن يحتاج اليها لما يدخلها من الالواح والدسر والصواري والمجاذيف مع هندسة اجزائها فعمَّروا لهم السُّفن وجهَّزوها لحروبهم في ايام معاوية ودولة بني اميَّة

وفي اللغة ما يدلُّ على اصول فن الملاحة الاجنبيّ فترى فيها الفاظاً متعدِّدة اما رومية واما آراميَّة او حبشيَّة تثبت حدوث الملاحة في الحقبة الاولى من الاسلام وقد تقلَّدوا في صنعها صورة مراكب الروم واليونان في هيئاتها المختلفة واجرامها المتباينة . فمما استعاروه من اليونانيَّة : اسطول (στόλος) أنجر (ἄγκυρα) نوتي (ναύτης) . ومن السريانيَّة او الآراميَّة : سفينة قارب قُرقور دَقل ربَّان ملَّاح سُكَّان قِلع مجذاف صاري. ومن الحبشيَّة : بحر شراع مرسى

(النُّقود) انَّ التجارة والمفايضات في البيع والشراء لا تجري عادةً الَّا بمسكوكات ونقود تُدفع بدلًا من السِّلع والبضائع. وكان للدول النبطيَّة والملوك ميشان وخراسان في العراق والملوك الجزيرة في جهات الرها وحضر والملوك تدمر نقود ضربوها باسمهم ذهبيَّة وفضيَّة ونحاسيَّة منها امثال حسنة في مناحف اوربَّة وعند بعض الخاصَّة

فوصفوها ورسموا صورها وفنّدوا بذلك ما كتبهُ المقريزيّ في كتابهِ النقود القديمة الاسلاميّة حيث قال :

« كانت نقود العرب في الجاهليّة التي تدور بينها الذهب والفضّة لا غير ترد اليها من الممالك دنانير الذهب قيصريّة من قبل الروم ودراهم فضّة على نوعين سوداء وافية وطبرية عنقًا وكان وزن الدراهم والدنانير في الجاهليّة مثل وزنها في الاسلام مرّتين ويسمّى المثقال من الفضّة درهمًا ومن الذهب دينارًا ولم يكن شيء من ذلك يتعامل به اهل مكّة في الجاهليّة وكانوا يتعاملون باوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم »

فانّ علماء النقود العربيّة كالسير فكتور لنغلوا (V. Langlois) في كتابهِ عن نقود العرب قبل الاسلام (Numismatique des Arabes avant l'Islamisme) والسير هنري لاڤوا (H. Lavoix) في كتابهِ عن النقود الاسلاميّة المصونة في مكتبة باريس العموميّة والسيو دي تيسنهوزن (de Tiesenhausen) وغيرهم اثبتوا استعمال عرب الجاهليّة للنقود النحاسيّة واستغربوا قول المقريزي عن الدراهم السوداء والطبريّة واستنتجوا من كلامهِ جهلهُ بالنقود القديمة

وما لا يُنكر انّ العرب قبل الاسلام تداولوا في بلادهم ومع الامم المجاورة لهم النقود النصرانيّة فراجت بينهم ايّ رواج على اختلافها ذهبيّة كانت ام فضيّة او نحاسيّة واغلب ما عرفهُ العرب من النقود ما كانوا يتعاملون بهِ من النقود القيصريّة الروميّة مع رسومها الدينيّة . وقد اشتهرت بينهم نقود هِرَقل قال المسعودي في مروج الذهب (٢ : ٣٣٣) : « وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهرقليّة » وقال البلاذري في فتح البلدان (ص ٤٦٦) : « وكانت دنانير هرقل تَرِد على اهل مكّة في الجاهليّة » وروى في الاغاني (١١ : ٥٢) لكُثَيِّر عزّة قولهُ :

يرونَ عيونَ الناظرات كأنّهُ هِرَقليّ وزنٍ احمرُ التِبْر راجحُ

وروى الانباري في شرح معلّقة عنترة (éd. Rescher. 61) :

دنانيرُ مما شِيفَ في ارضِ قيصرِ

اراد الدنانير الجليّة المُعْلَمة الموسومة بالكتابة . وقد ذكر أُحيحة بن الجلاح دنانير مدينة أيلة التي كان صاحبها الامير النصراني يوحنّا بن روبة قال يرثي ابنهُ (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٤٢٢) :

ألا انّ عيني بالبكاء تذلّل جزوعٌ صبورٌ كلّ ذلك تفعلُ
فا هبرزيٌّ من دنانير أيلةٍ بأيدي الوشاةِ ناصعٌ يتأكّلُ
بأحسن منهُ يومَ اصبح غادياً وتمشي فيهِ الحسلمُ المجدّلُ

(قال) يتأكّل اي يأكل بعضهُ بعضاً لحسنهِ . والوشاة الضرّابون . وقد وصفوا كذلك الدراهم الروميّة . قال عنترة يصف روضةً اصابها المطر الجَوْد فأنعشها :

جادت عليهِ كلّ بكرٍ ثرّةٍ فتركنَ كلّ حديقةٍ كالدرهمِ

ومثلهُ الاسود بن يَعْفُر (شعراء النصرانيّة ص ٤٨٢) :

من خمرِ ذي نَطَفٍ اغنّ كمنطقٍ وافى جباكدراهم الأسجادِ

(قال) اراد بالاسجاد اليهود والنصارى . وكانوا يدعون النقود الخفيفة النحاسيّة نُتَيّاً وفلوساً قال اوس بن حَجَر (ديوانهُ éd. Haffner) :

وفارقتْ وهي لم تَجْرَبْ وباع لها من الفصافص بالنُّتيّ سفيرُ

وقال جرير يهجو الاخطل (الاغاني ٧ : ١٧٨) :

والتغلبيّةُ مُهرها فَلْسانِ

ومن الادلّة التي تشهد على رواج النقود الروميّة بين عرب الجاهليّة انّ معظم الالفاظ الدالّة عليها يونانيّة او لاتينيّة الاصل كدينار (δηνάριον) ودرهم (δραχμη) وقيراط (κεράτιον) ونُمّي (νοῦμμος) وفلس (φόλλις) وقنطار (centenarium)

ثمّ ظهر الاسلام والمسلمون لم يعهدوا ضرب النقود فتعاملوا بمسكوكات الروم التي كانوا يرنجونها بتاجرتهم مع بلاد الشام ومصر والعراق او وجدوها في فتح البلدان فأخذوها غنيمةً واقتسموها جنودهم . ولجهلهم لغة البلاد التي استولوا عليها اقاموا لهم عمّالاً من نصارى الوطنيين ولّوهم على دواوينهم الماليّة لجباية الخراج والضرائب المختلفة . وكان من جملتهم في دمشق سرجيوس او سرجون جدّ القديس يوحنّا الدمشقيّ المعروف بابن منصور

ففي ايّام الخلفاء الراشدين ولاسيّما عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وفي اوائل الدولة الامويّة ضُربت نقود العرب على هيئتها النصرانيّة السابقة . ففي متاحف اوربّة عشرات من النقود التي ضُربت في دمشق وحمص وبعلبك وطبريّة في ايّام عمر في السنة ١٧ للهجرة وما بعدها وكلّها عليها رسم هرقل ملك الروم مع صورتهِ وسائر

أشعرة النصرانيّة كاوّل حروف اسم السيّد المسيح وكصليبه المقدّس وصورة النسر . وعلى بعضها شعار قسطنطين الكبير : بهذه العلامة انتصر (ἐν τούτῳ νίκα) ثم سمة النقود M مع اسم المدينة باليونانيّة او بالعربيّة هكذا : «ضرب . دمشق (حمص . طبريّة . بعلبك . ايليا . انطاكية) . جايز» . ومعظم هذه النقود فلوس من نحاس . وقد وُجد على بعضها اسم عمر بالاختصار (عمر بن الخطّ) واسم خالد بن الوليد واسم يزيد بن ابي سفيان واسم ابي عبيدة (١

وقد وجدوا على عدّة نقود من ذلك العهد كلمة «باسم الله» وقال ياقوت في معجم البلدان (٤ : ٨٨١) انّ الحجّاج بن يوسف اوّل من ضرب درهماً عليه شعار الاسلام «لا اله الّا الله ومحمّد رسول الله» . وليس قوله بسديد لانهُ تُعرف نقود لعليّ ابن ابي طالب ضُربت في البصرة سنة ٤٠ هـ عليها هذا الشعار «لا اله الّا الله وحده لا شريك لهُ» وعلى الوجه الآخر «محمّد رسول الله ارسلهُ بالهدى ودين الحقّ يظهرهُ على الدين كله ولو كره المشركون (٢ »

ومن هذا ترى غلط معظم مؤرخي العرب الذين زعموا انّ اوّل من كتب على النقود الاسلاميّة بالعربيّة هو الخليفة عبد الملك بن مروان . قال الثعالبيّ في لطائف المعارف (ص١٣) : «اوّل من نقش على الدراهم والدنانير بالعربيّة عبد الملك بن مروان فانهُ عُني بذلك وكتب الى الحجّاج في اقامة رسمه »

وقد اخبر المقريزي في كتاب النقود الاسلاميّة (ص٥ طبعة الجوانب) ان معاوية ابن ابي سفيان كان قبل ذلك ضرب دنانير عليها تمثالهُ متقلّداً سيفاً . ومثل هذه الدنانير لم يجدها بعد الاثريّون لكنّهم وجدوا فلوساً تمثّل معاوية واقفاً وشعرُ رأسه مفروق على جبهته وفي يمناهُ السيف وفي ظهر الفلس اسم ايليا وفلسطين مع صليب على هذه الهيئة ⊕ . فلمّا ملك الخليفة عبد الملك جرى اوّلاً على مثال اسلافه وابقى الصليب مع صورته واسمه في الدنانير والفلوس الى السنة العاشرة من ملكه ويوجد من هذه

---

١) اطلب مقالةً في نقود الاسلاميّة الاولى للبارون دي سلان في المجلّة الاسيويّة الفرنسويّة (J. A., 1871², 199-211) .

٢) اطلب المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG. XVII, 39)

النقود بعض الامثلة في المتاحف وهي مضروبة في حمص ودمشق وعمان وقنّسرين ومنبج وسرمين وغيرها

ففي السنة العاشرة من خلافته عدل عن النقود السابقة واتّخذ نقوداً جديدة خالية من الرسوم النصرانيّة ولذلك عدّهُ كتبة العرب كأوّل خليفة نقش الدنانير قال الطبري في تاريخه (٢ : ٩٣٩ - ٩٤٠) : اوّل نقش الدنانير والدراهم على عهد عبد الملك ابن مروان سنة ٧٦ ﻫ . والصواب انهُ ضرب اوّلاً النقود القديمة ونقش فيها صوراً انكرها عليهِ بقايا من الصحابة كما يقرّ بذلك المقريزي في كتاب النقود الاسلاميّة (ص٦) . وفي السنة ٥٧٦ (٦٩٦م) ضرب نقوداً اسلاميّة محضة وازال منها الصور والرسوم النصرانيّة . لكنّهُ بقي شيء منها لعلّهُ ضُرب بدون علمهِ ففي متحف باريس دينار ضُرب سنة ٧٧ ﻫ عليهِ صورة عبد الملك مع سارية نصرانيّة . وفيهِ ايضاً نقود نحاسيّة ضُربت في السنة ٨٠ عليها رسم صليب

اما سبب اتخاذه السكّة الاسلاميّة فنفورهُ مما كانت الروم ترسمهُ على سكّتهم من تعظيم الصليب والاعلان بلاهوت المسيح . وهذا ايضاً ما دفعهُ الى ان يُحدث كتابات الطوامير والقراطيس التي كان في صدرها مثل هذه الأشعرة النصرانيّة . وقد اخبر بذلك البلاذريّ في فتح البلدان (ص٢٩٠) :

«قالوا كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من ارض مصر ويأتي العربَ من قبَل الروم الدنانير فكان عبد الملك بن مروان اوّل من أحدث الكتاب الذي يُكتَب في رؤوس الطوامير من «قُلْ هو الله احد» وغيرها من ذكر الله . فكتب اليهِ ملك الروم : انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً تكرههُ فان تركتموهُ والّا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيّكم ما تكرهونهُ . (قال) فكبر ذلك في صدر عبد الملك فكره ان يدع سنّةً حسنةً سنّها فارسل الى خالد بن يزيد ابن معاوية فقال لهُ : «يا ابا هشام احدى بنات طبّق» واخبره الخبر فقال : أفرغ روّعك يا امير المؤمنين حرّم دنانيرهم فلا يُتعامل بها واضرب للناس سكّكاً ولا تُعنَ هؤلاء الكفرة بما كرهوا في الطوامير» . فقال عبد الملك : «فرّجتها عني فرّج الله عنك» وضرب الدنانير . قال عوانة بن الحكم وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبهُ الى الربوبيّة تعالى علوّاً كبيراً وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم فلذلك كره ملك الروم ما كره واشتدّ عليهِ تغيير عبد الملك ما غيّرهُ»

وقد اتى هذا الخبر مفصّلاً في كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (ed. Schwally, p.498-502) تقتطف منهُ ما يأتي :

قال الكسائي : دخلتُ على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانهِ وبين يديهِ مال كثير قد شق

عنهُ البذرَ شقًّا وامر بتفريقهِ في خدم الخاصّة ويده درهم تتلوّح كتابتُهُ وهو يتأمّلهُ وكان كثيرًا ما يحدّثني فقال : هل علمت مَنْ اوّل مَنْ سنَّ هذه الكتابة في الذهب والفضّة ؟ قلت : يا سيّدي هذا عبد الملك بن مروان . قال : فما كان السبب في ذلك ؟ قلتُ : لا علمَ لي غير انهُ اوّل من أحدث هذه الكتابة . فقال : سأخبرك . كانت القراطيس للروم وكان اكثرُ مَنْ بمصر نصرانيًا على دين ملك الروم وكانت تُطرَّز بالروميّة وطرازهُ آبا وابنا وروحا قدّيشا (أحاحدوا ٥٥٥سا وحمحما) فلم يزل كذلك صدر الاسلام كلّهُ يمضي على ما كان عليهِ الى ان ملك عبد الملك فتنبّه عليهِ وكان فطينًا فبينما هو ذات يوم اذ مرَّ بهِ قرطاس فنظر الى طرازهِ فامر ان يترجم بالعربيّة ففُعل ذلك فانكرهُ . . . فامر بالكتاب الى عبد العزيز بن مروان وكان عاملهُ بإبطال ذلك الطراز . . . . وان يأخذ صنّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد . . .

ثم اخبر استياء ملك الروم من هذه الكتابة وتهديدهُ بنقش شتم نبيّ الاسلام وكيف استقدم عبد الملك من المدينة محمّد بن علي بن الحسين ليستشيرهُ في ذلك فدلَّهُ على ضرب سكك الدراهم والدنانير كما روى البلاذري عن خالد بن يزيد بن معاوية فأبطلت منذ ذاك السكك والطراز الروميّة (لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

THE ORIGINS OF THE ISLAMIC STATE. Being a translation from the arabic accompanied with annotations, geographilic and historic notes of the KITAB FUTUH AL-BULDAN OF AL-BALADHURI by Ph. Khûri Hitti. *Ph. D., vol. I, New-York, Columbia University,* 1916. *pp.* 515

ترجمة الدكتور فيليب خوري حتى لكتاب فتوح البلدان للبلاذري

قال المسعودي في مروج الذهب يصف كتاب البلاذري المعنون بفتوح البلدان (١ : ١٤) : « لا نعلم في فتوح البلدان احسن منهُ » . فاستحقّ الدكتور دي خوي (de Goeje) شكر العموم بنشرهِ في ليدن . بيد انَّ منافعهُ كانت محصورة في المستشرقين فاحبّ وطنيُّنا الهمام الدكتور فيليب خوري حتّى نقلهُ الى الانكليزيّة